مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية | ISSN: 2437 - 0363 EISSN 2602-6767 | المجلد 07 / العـدد: 02 (2021)، ص 432- 442

موقف المؤرخ المستشرق رينهرت دوزي من تاريخ الدولة الأموية بالأندلس

The position of the orientalist historian Reinhart Dozi on the history of the Umayyad state in Andalusia

أحمد يونسي[1]*

[1] المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر.younes-26dz@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2021/06/30 تاريخ القبول: 2021/10/01 تاريخ النشر: 2021/12/25

ملخص:

نحاول من خلال هذه الدراسة التعرف على أهم الشبهات والإفتراءات التاريخية التي طرحها المستشرق المؤرخ رينهرت دوزي في كتابه تاريخ المسلمين في إسبانيا، حيث تطرقنا إلى أهم القضايا التاريخية التي عالجها وطرحها رينهرت دوزي حول تاريخ الأمويين بالأندلس، كما نقدنا الروايات التاريخية و بينا فيها أهم المغالطات التاريخية و تفسيرها حسب سياقها التاريخي الذي وقعت فيه، كما حاولنا تبيين التعصب الديني والعرقي اللذان ظهرا جليا في كتابات دوزي و هو لا يختلف عن بقية المستشرقين الأوربيين في طرحه لقضايا التاريخ الإسلامي حيث حاول هؤولاء المستشرقون تشويه التاريخ و الحضارة الإسلامية.

كلمات مفتاحية: المؤرخ رينهرت دوزي – التسامح الديني – تاريخ الدولة الأموية بالأندلس – نصارى الأندلس.

Abstract:

Through this study, we try to identify the most important historical suspicions and fabrications put forward by the orientalist historian Reinhart Dozi in his book The History of Muslims in Spain, where we touched on the most important historical issues addressed and raised by Reinhart Dozi about the history of the Umayyads in Andalusia, as we criticized historical novels and explained the most important historical fallacies and their interpretation according to their historical context in which they occurred, as we tried to show the religious and ethnic intolerance that appeared clearly in the writings of Dozi and he is It is no different from the rest of the European orientalists in raising the issues of Islamic history, where orientalists tried to distort Islamic history and civilization.

Keywords: *Historian Reinhart Dozi - Religious Tolerance - History of the Umayyad State of Andalusia - Christians of Andalusia.*

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

حاول بعض المؤرخين الأوربيين تشويه تاريخ الدولة الأموية بالأندلس و تزييف بعض الحقائق التاريخية وذلك من خلال مؤلفاتهم المشهورة و خاصة المستشرقين مثل رينهرت دوزي الهولندي، ليف بروقنصال الفرنسي و سيمونيت الإسباني فرغم إدعائهم الموضوعية في كتابة التاريخ الإسلامي وخاصة تاريخ المسلمين في الأندلس إلا أنهم حادوا عن الموضوعية ، خاصة في إبداء أرائهم في بعض القضايا التاريخية حيث الطابع الديني المسيحي يبدو جليا في هذه الأراء ، فالدارس لمؤلفات هؤولاء المؤرخين يجب أن يحتاط و ينتقد الروايات التارخية الموجودة في كتبهم ، فهؤولاء المؤرخين يدسون السم في العسل ، ففي بعض الأحيان ينصفون بأحكامهم المسلمين في الأندلس و في بعض الأحيان تطغى عليهم الروح الصليبية المسيحية ، خاصة في القضايا التاريخية التي لها علاقة بالتسامح المسيحي الإسلامي في الأندلس . وفي هذا المقال نحاول إبراز التعصب الثقافي إن لم نقل التعصب الديني المسيحي لهؤولاء المؤرخين و أخذنا كمثال في هذه الدراسة كتاب: تاريخ المسلمين في إسبانيا (711م- 1110م) ، الجزء الأول للمؤرخ المستشرق رينهرت دوزي الهولندي.

ونحاول طرح الإشكالية التالية: ما مدى الموضوعية في كتابات المؤرخ دوزي وهل أرائه كانت خالية من التعصب في تناوله لتاريخ الدولة الأموية بالأندلس.

يعتبر كتاب تاريخ المسلمون في إسبانيا من أهم المراجع التي ألفها المستشرقون في تاريخ الأندلس حيث يتميز بالدقة التاريخية و تحليله للأحداث التي وقعت وفق الظروف التي حدثت فيها فهو يتميز عن غيره من المؤلفات الكلاسكية التي تتميز بسرد الأحداث دون نقاش وتحليل ، كما نلاحظ أن المؤرخ دوزي أبدى أراءه حول مختلف الوقائع و الأحداث التاريخية و حتى أنه يبدي مواقفه و يصدر أحكامه حول مختلف الأمراء و الخلفاء الذين حكموا الدولة الأموية بالأندلس.

حاولنا في هذه الدراسة الإشارة إلى مختلف المواقف و الآراء التي أصدرها المؤرخ رينهرت دوزي حول تاريخ المسلمين بالأندلس .

2. موقف المؤرخ دوزي من تاريخ الدولة الأموية بالأندلس:

لقد تجاهل المؤرخ دوزي في عنوان كتابه " تاريخ المسلمين بإسبانيا " مصطلح الأندلس و سماه بتاريخ إسبانيا و هو بذلك يساير في منهجه المؤرخين الإسبان الذين يريدون طمس مصطلح الأندلس و يتجاهلونه و يعتبرونه فترة ظلامية من تاريخ إسبانيا .

1.2. موقف المستشرق المؤرخ رينهرت دوزي من أمراء الدولة الأموية بالأندلس:

أ- موقف المؤرخ دوزي من الأمير الأموي عبد الرحمان الداخل:

لقد حاول المؤرخ دوزي تشويه صورة الأمير عبد الرحمان الداخل فقول: " لقد دفع عبد الرحمان ثمن ظفره غاليا، ذلك الطاغية الغادر الصارم المنتقم الذي لا تأخذه رأفة لم يبق زعيم عربي أو بربري تجرأ على مواجهته، والجميع كاموا يلعنونه خفية ، ولم يكن ثمة رجل يرغب في خدمته و كان هم عبد الرحمان أن يذل العرب و البربر و يرغمهم على النظام "(محمد عبد الله، د.س، ص194)، لقد تناسى دوزي أن عبد الرحمان الداخل أسس أعظم دولة إسلامية في غرب العالم الإسلامي وصفة الصرامة كانت حتمية تقتضيها السياسة في تلك الفترة خاصة أن الأندلس قبل مجيء عبد الرحمان الداخل كانت تعيش فوضى سياسية كادت تعصف بوحدة الأندلس.

ب- موقف دوزي من شخصية الأمير محمد بن عبد الرحمان الأموي:

كما طعن المؤرخ رينهرت دوزي في شخصية الكثير من الأمراء الأمويين و خاصة الأمير محمد بن عبد الرحمان (الحميدي، 1936، ص27)، الذي يصفه فيقول:" كان السلطان الجديد قاصر التفكير متبلد الإحساس ، أنانيا و قد رأيناه لم يظهر شيئا من الحزن و لم يجزع حين حمل إليه سعدون نعي وفاة أبيه بل أنه فرح لموت أبيه ."(دوزي، 1932، ص122)

وهذا تحامل من المؤرخ دوزي على الأمير محمد و تشويه شخصيته فهذه الصفات غير موجودة فمعظم المؤرخين الذين ترجموا للأمير محمد يصفونه بالتقوى و التدين الشديد وحتى المؤرخ دوزي يتناقض مع نفسه فيقول في موضع أخر:" وقف الفقهاء إلى جانب الأمير محمد لإيمانهم بتقواه و شدة كرهه للإسبان فقد سرح جميع عماله من المسيحيين و هدم جميع الكنائس القديمة التي بنيت منذ ثلاثة قرون". (نفس المرجع ص120)

كما يبدوا من خلال هذا النص أن أسباب تعصب المؤرخ دوزي على الأمير محمد هو سياسته ضد النصارى الإسبان فقد طرد العمال المسيحيين من القصر الملكي و من الوظائف الحكومية بعدما رأى استفحال هذه الطبقة من المجتمع الأندلسي في فساد الإدارة الأموية و ضعف الدولة الأموية.

واتهام دوزي للأمير محمد بالتعصب الديني و مساندته للفقهاء المالكية غير صحيح فكثيرا ما عارض الأمير محمد فقهاء المالكية فمثلا لما جاء الفقيه الشافعي بقي بن مخلد بكتاب بمصنف أبي بكر بن شيبه و قريء بالأندلس أنكر جماعة من المالكية ما فيه من الخلاف و استشنعوه و هموا بإخراجه فرفض الأمير مطلبهم و قال:" لبقي بن مخلد: أنشر علمك وروي ما عندك . " (الحميدي، 1966، ص 27)

أما هدمه للكنائس المحدثة فهو أمر شرعي تنص عليه الشريعة الإسلامية و هو موجود في الكتب الفقهية و خاصة الفقه المالكي، فقد أشار الفقهاء المالكية على الأمير محمد بهدم هذه الكنائس و خاصة بعدما أصبحت مركز فتنة و تفريق بين مكونات المجتمع الأندلسي.

ج- تشويه شخصية الخليفة عبد الرحمان الناصر:

حاول المؤرخ دوزي إلقاء الضوء على بعض المواقف لعبد الرحمن الناصر و تصويره على أنه طاغية فمثلا المؤرخ دوزي الهولندي يقول في كتابه تاريخ الأندلس منع عبد الرحمن النصارى من إنزال جثة إيساك ودفنه فطلب أن تظل الجثة على الصليب بضعة أيام ثم تحرق ويذر رمادها في النهر، (الدوزي، نفس المرجع السابق، ص 101) وهذه الحادثة لم نجد لها أثر في المصادر الإسلامية، ويبدوا أن عبد الرحمن(الدوزي، نفس المرجع السابق، ص 23) تخوف من إثارة النصارى بدفن جثة الراهب إيساك فيصبح قبره محجة لبقية المسيحيين ويصبح قدوة لهم في الاستشهاد و هذه العادة معروفة لدى النصارى تقديس للرهبان.

مع بداية عهد عبد الرحمن الناصر خمدت نار الثورة لدى الإسبان ويفسر المؤرخ دوزي ذلك بأن الشيخوخة دبت في زعماء هذه الجماعة ولم يعد يتحمس لفكرة التمرد والخروج عن الدولة الأموية ويفسر هذا الركون بـ تنمر السكان الإسبان من الفوضى والحروب الأهلية فكان الإسباني يشاهد في كل يوم قيام جند السلطان وجماعات الثوار بتخريب الحقول التي تمدهم بالغلة الوفيرة وقطع أشجار الزيتون المثمرة ودرقهم القرى ودلت أفكارهم على أنه إذا كانت الثورة الوطنية الكبرى قد عجزت(الدوزي، نفس المرجع السابق، ص 219) عن تحقيق أهدافها إبان الفترة الأولى فلن يتأتى لها بعد ذلك.

ويشيد النقد الحديث بمناقب عبد الرحمن الناصر وعصره أعظم إشادة. وربما كان أبلغ ما قيل في ذلك تلك العبارات القوية التي يختتم بها العلامة دوزي حديثه عن عصر عبد الرحمن الناصر: " لقد كانت هذه نتائج باهرة، ولكنا نجد إذا ما درسنا ذلك العصر الزاهر، أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة، بأكثر مما يثيرهما المصنوع: تثيرهما تلك العبقرية الشاملة التي لم يفلت شيء منها، والتي كانت تدعو إلى الإعجاب في تصرفها نحو الصغائر، كما تدعو إليه في أسمى الأمور. إن ذلك الرجل الحكيم النابه، الذي استأثر بمقاليد الحكم، وأسس وحدة الأمة، ووحدة السلطة معاً، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسي، والذي اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالا من غير المسلمين، لأجدر بأن يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى." (الدوزي، نفس المرجع السابق، ص 132).

د- موقف المؤرخ دوزي من الأمير المنصور بن أبي عامر:

ويختتم العلامة دوزي كلامه عن المنصور بالفقرة الآتية: " وعلى الجملة، فإذا وجب أن نستنكر الوسائل التي لجأ إليها المنصور في اغتصاب السلطة، فمن الواجب أيضاً أن نعترف بأنه استخدمها بطريقة شريفة. وما كنا لنسرف في لومه لو أن القدر خلقه على أريكة العرش، ولعله كان يعتبر عندئذ من أعظم الملوك الذين عرفهم التاريخ، ولكنه خلق في القرية، واضطر لتحقيق أطماعه، أن يشق لنفسه طريقاً تكتنفه آلاف الصعاب ومن الأسف أنه من أجل تذليلها، قلما راعى شرعية الواسطة. لقد كان المنصور رجلا عظيماً من وجوه كثيرة، ولكن يستحيل علينا، متى رجعنا إلى مبادئ الأخلاق الخالدة أن نحبه، ومن الصعب أن نعجب به. " (الدوزي، نفس المرجع السابق، ص 275)

لقد ركز المؤرخ دوزي على الجانب الأخلاقي لسياسة المنصور بن أبي عامر و أهمل إنجازات هذا الأمير الذي وصل في فتوحاته بأقصى الأندلس إلى مناطق لم يبلغها غيره، ثم يستهزئ دوزي بشخصية المنصور بن أبي عامر فيقول إنه خلق في القرية و أنه لم يخلق على أريكة العرش، فكثير من الأمراء الذين ورثوا الحكم حتى في الدولة الأموية لم يحققوا إنتصارات المنصور بن أبي عامر.

2.2 موقف دوزي من ثورة عمر بن حفصون:

يذهب المؤرخون الإسبان اليوم إلى أن ثورة عمر ابن حفصون تمثل نزوغ الإسبان إلى التخلص من العرب وهم يدرسونها على أنها جزء من التاريخ الإسباني العام و ذلك خطأ من كل ناحية فعمر ابن حفصون أندلسي المولد و النشأة و عاش معظم حياته مسلما و أسباب ثورته تتصل كلها بنظام الحكم الأموي و سوء تصرف الحكام العرب مع الفلاحين في نواحي الأندلس التي كان معظم سكانها من اهل الذمة و هو لم ينزع إلى الإستقلال إلا عندما تدهورت ثورته و أصبح يلمس النجاة من الهلاك المحتوم .(حسين ، د.س، ص 349)

يقول حسين مؤنس :"ويذهب فئة من المؤرخين ان عمر ابن حفصون دعا إلى الإستقلال و التخلص من الحكم العربي و الحقيقة ان ابن حفصون كان مسلما فهو ثائر على سوء الإدارة و مطامع السلطان خاصة في جباية اموال الجزية التي أرهقت السكان المحليين " (حسين ، نفس المرجع السابق، ص 350) وهذا الكلام مخاف للصواب فكل المصادر التاريخية تشهد ان ابن حفصون تنصر في أخر مطاف ثورته و العبرة بالخواتم وقد وصف لنا ابن حيان مؤرخ الأندلس ابن حفصون عند ذكر الخوارج في تلك العبارة الجامعة: " إمامهم وقدوتهم عمر بن حفصون، أعلاهم ذكراً في الباطل، وأضخمهم بصيرة في الخلاف، وأشدهم سلطاناً، وأعظمهم كيداً، وأبعدهم قوة. " (ابن حيان، 1937، ص 9).

فابن حيان المؤرخ المعاصر يصف لنا ابن حفصون بأنه خارجي و لعل هذا الوصف يصدق عليه في بداية ثورته، صحيح أن سوء الإدارة الأموية كان سببا في إثارة نار الثورة فالظروف كانت مهيأة لابن حفصون حيث يشرح لنا الرازي البواعث الأولى لهذه الفتنة التي اضطرمت في كورة ريُّه والجزيرة، فيقول لنا إن السبب في تحريكها يرجع إلى عنف يحيى بن عبد الله ابن يحيى عامل الأمير محمد في كورة ريه، في مطالبته لأهلها ببقايا عشور تأخرت عليهم، واشتطاطه في ذلك وإرهاقهم، فامتنعوا عليه واعتصموا بجبالهم، وتأهبوا للدفاع عن أنفسهم، وهذا ما نقرأه في تعليقات بعض أكابر المستشرقين أمثال دوزي وسيمونيت، وذلك بالرغم من كونهم لم ينسوا أن يذكروا في نفس الوقت أن ابن حفصون قد نشأ سفاحاً وقاطعاً للطرق، لا تحدوه أية نزعة وطنية أو غاية مثلى. بيد أن سيمونيت، وهو مؤرخ النصارى المستعربين، يحاول أن يبرر حسن تقديره وتصويره لحركة ابن حفصون، بأن قيامه اتخذ فيما بعد " شكلا أكثر نبلا، وتحوله من زعيم عصابة إلى زعيم حزب وأمة ". ويصفه دوزي بأنه " البطل الإسباني الذي لبث أكثر من ثلاثين عاماً يتحدى المتغلبين على وطنه، والذي استطاع مراراً أن يجعل الأمويين يرتجفون فوق عرشهم " وأنه " كان بطلا خارقاً لم تنجب إسبانيا مثله منذ أيام الرومان ". أما نحن فنرى في مثل هذه الآراء مبالغة وإغراقاً، وأنها ليست إلا ثمرة نزعة من التعصب الديني والجنسي، الذي يطبع النقد الغربي، في كثير من المواطن، وأن ابن حفصون بالرغم من صلابته وقوة عزمه، وبراعة خططه، لم يكن سوى قاطع طريق، وثائر من طراز قوي عنيف. أجل إن ابن حفصون، كان يدعو منذ اشتد ساعده، إلى ما يسميه قضية الاستقلال والحرية، وتحرير مواطنيه من نير المسلمين، بيد أنه لم يكن في هذا الزعم سوى مخادع سياسي، يسعى إلى كسب الصحب والأنصار لتقوية مركزه، ودعم سلطانه، ولم يكن يصدر في مغامراته وحروبه أو في أعماله خلال ثورته الطويلة، عن أية نزعة نبيلة، أو تصرف تطبعه الشهامة، والعزة القومية، بل كانت أعماله وتصرفاته كلها، بغى صراح، وإجرام في إجرام.، وامتهان لكل المبادئ الأخلاقية، وكل مقتضيات الشرف والمروءة والشهامة. ومن كان هذا شأنه، فإنه من التعسف أن تُسبغ عليه صفات البطولة، وثوب التحرير والوطنية.

3.2. اتهام دوزي العرب المسلمين بالأرستقراطية و التعصب الديني:

يقول دوزي: "لم يكن الحزب القومي قويا في أي ولاية قوته في إشبيلية التي كانت منذ أيام القوط مركز العلوم والحضارة ومقر أنبل الأسرات وأثراهم ولم يحدث الفتح العربي أي تبديل في النظام الاجتماعي فلم يستقر في المدينة إلا قليل من العرب لإيثارهم الريف عليها، كما نبذ معظم الإشبيليين المسيحية منذ زمن بعيد وأقاموا لأنفسهم مسجد جامعا زمن عبد الرحمن الثالث يبد أن أخلاقهم وطباعهم وأسماء عائلاتهم كانت لا تزال تشير إلى أصلهم الإسباني ففيهم بنو أنجلين وبنو شرقة. (الدوزي، نفس المرجع السابق، ص45).

يذكر المؤرخ دوزي بعض مظاهر التعصب للعامة تجاه أهل الذمة فيقول "إن العامة كانت لا تتسامح مع النصارى و كانت إذا رأت قسيسا في الشارع صاحت به هذا هو المجنون و ترنمت ساخرة بالصليب و رجمه الصبية بالحجارة و طالما سمعهم القساوسة أثناء الجنائز يقولون : لا رحمهم الله و تتساقط على الموكب الاقذار و الحجارة و إذا قرعت نواقيس الصلاة بالكنائس هز المسلمون رؤوسهم و قالوا :" يا لها من جماعة ساذجة افسدها قساوستهم ألا لنة الله على أولئك المخادعين ." (الدوزي، نفس المرجع السابق، ص 20)

كما يصف المستشرق دوزي الأمويين بالأرستقراطية العربية التي كانت تستغل الشعب الإسباني المسيحي فيقول في معرض حديثه عن فتنة إشبيلية و إخضاع عبد الرحمان الناصر لهذه المدينة و القضاء على فتنة بني الحجاج بها : ففي الوقت الذي انصرف سكان ألبيرة لمحاربة الأرستقراطية العربية جرت في إشبيلية أحداث بالغة الخطورة، (الدوزي، نفس المرجع السابق، ص 165) ثم يصور العرب على أنه قساة و يرميهم بالعصبية العرقة فيقول : " كان الإسبان يخشون عرب الريف الذين ظلوا محافظين على أخلاقهم البدوية وكانوا على استعداد للوثوب على الإسبان الأثرياء و سلبهم و قتلهم متى مكنتهم الظروف من ذلك ، يدفعهم إلى ذلك غيرتهم منهم و حقدهم عليهم، (الدوزي، نفس المرجع السابق، ص 166) وهذا غير صحيح فالعرب عاشوا مع الإسبان المسلمين و المسيحيين في تسامح لم يعرف له مثيل من قبل ، أما الحروب التي كانت بين الطرفين فكان الأسبان المسيحيون هم البادئون و المعتدون فيها.

كما يفسر المؤرخ دوزي انهزام عمر ابن حفصون بعدة أسباب تعود إلى الإسبان الموالين للأمويين الذين يسميهم :" بالعبيد القدامى و أبنائهم الذين عملوا جهدهم على الحيلولة دون سيادة النصرانية مرة أخرى لأنها إذا عادت النصرانية عاد ت معها الإدعاءات القديمة البالية التي سيكونون ضحية لها (الدوزي، نفس المرجع السابق، ص227) ". و المؤرخ دوزي ينفي هنا جهود الأمراء الأمويين في إخماد ثورة ابن حفصون و خاصة جهود عبد الرحمان الناصر الذي استطاع بقوته و تسامحه الديني أن يكسب ثقة الإسبان سواء المسلمين و النصارى، كما يدعي أن من أسباب فشل ثورة ابن حفصون الإسبان من الطبقات الدنية غير النبيلة الذين تخوفوا من عودة الإمتيازات القديمة التي كانت أيام القوط.

4.2. موقف المؤرخ دوزي من التسامح الديني :

لقد أقر المؤرخ المستشرق دوزي بتسامح المسلمين مع نصارى الأندلس :" إن تسامح و معاملة المسلمين الطيبة لأهل الذمة أت إلى إقبالهم على الإسلام و أنهم رأوا فيه البساطة و اليسر مما لم يألفوه في ديانتهم السابقة " (عبد الله، د.س، ص36) ، ثم ينشر دوزي شبهة أخرى تبررا أسباب تسامح الأمويين مع نصارى الأندلس ألا وهي رغبة الأمويين في الحصول على الأموال عن طريق فرض الجزية

على أهل الذمة فيقول دوزي:" لم تكن حال النصارى في ظل الحكم الإسلامي مما يدعوا إلى الكثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل و لم تكن الحكومة لتشجع إسلام النصارى إذ كانت خزانة الدولة تخسر بإسلامهم كثيرا ." (عبد الله، د.س، ص63)

يعترف المؤرخ دوزي بالتسامح الديني مع نصارى الأندلس و لكن تفسيره لأسباب تسامح الأمويين مع النصارى بالأندلس يرجعها إلى رغبة الأمويين في الحصول على الأموال عن طريق فرض الجزية و ليس تطبيق للشريعة الإسلامية أو تطبيق التسامح النابع من أخلاق و قيم الإسلام .

كما يورد المؤرخ دوزي شبهة تعصب المسلمين على أهل الذمة من النصارى:

يقول دوزي في كتابه :" من جهة اخرى إن الفتح الإسلامي للأندلس أعقبته فترة من الفوضى نهب فيها المسلمون عدة أماكن و أحرقوا عدة مدن و شنقوا بعض الأشراف و قتلوا بعض الأطفال بالخناجر و لكن الحكومة العربية قمعت هذه الفضائح. (الدوزي، نفس المرجع السابق، ص 275)

كما ينشر دوزي شبهة منع الحرية الدينية لنصارى الأندلس و تعيين الأساقفة ورجال الدين الموالين لهم يقول دوزي أن العرب المسلمين قضو عل الكنسية و تدخلوا و منعوا الحرية الدينية للنصارى الاندلس فيقول:" نندد بقضاء العرب على حرية الكنيسة و استئثارهم بتكوين المجالس الدينية و تعيين الأساقفة وعزلهم كما أن العرب بعد أن توطد سلطانهم كانوا أقل إحتراما للمعاهدات المنعقدة بينهم و بين أهل الذمة (الدوزي، نفس المرجع السابق، ص 281) ، إن المؤرخ دوزي اعتمد في سرد هذه الفضائح على المصادر المسيحية و هي متحاملة تحمل طابع المبالغة ، خصوصا فيما يتعلق بقتل الأطفال.

فقد خلَّت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم، والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسية، وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضاً، وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون، ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج، بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائل الميراث وأكثر المنازعات التي تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به.

و تشير الكثير من المصادر التاريخية إلى حرية تقاضي لدى أهل الذمة فنصارى الأندلس كانوا يفصلون في خصوماتهم بأنفسهم، وأنهم لم يكونوا يلجؤون للقاضي إلا في مسائل القتل.

و يمكن أن نستدل بأقوال المؤرخين الأوربيين الذين أنصفوا الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس و أشاروا إلى التسامح الديني و الحرية الدينية التي كانت سائدة في تلك الفترة.

ويقول غوستاف لوبون: " إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم .. فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام واتخذ العربية لغة له؛

فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى. (غوستاف ، د.س، ص 127)

ويقول: "وما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحاتهم وفي سهولة اقتناع كثير من الأمم بدينهم ولغتهم .. والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم." (غوستاف ، نفس المرجع السابق، صفحة 605)

ويوافقه المؤرخ ول ديورانت فيقول: "وعلى الرغم من خطة التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون، أو بسبب هذه الخطة اعتنق الدين الجديدَ معظمُ المسيحيين وجميع الزرادشتيين والوثنيين إلا عدداً قليلاً منهم .. واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلدان الممتدة من الصين وأندنوسيا إلى مراكش والأندلس، وتملَك خيالهم، وسيطر على أخلاقهم، وصاغ حياتهم، وبعث آمالاً تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها."(ول ديورنت، د.س، ص 133)

ويضيف السير توماس أرنولد إلى التسامح سبباً آخر أخذ بنواصي الناس إلى الإسلام، وهو الإعجاب بحضارة الإسلام ومدنيته وآدابه: «وقد بلغ من تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحولوا إليه من مسيحي أسبانيا مبلغاً عظيماً، حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة، واستهوى أفئدتهم بشعره، وفلسفته، وفنه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم .. أضف إلى ذلك أن علوم المسيحيين وآدابهم لا بد أن تكون بدت فقيرة ضئيلة إذا ما قيست بعلوم المسلمين وآدابهم التي لا يبعد أن تكون دراستها في حد ذاتها، باعثاً على الدخول في دينهم. هذا إلى أن الإسلام في أسبانيا استطاع أن يثير في نفوس الأتقياء الجمال الذي ينشده الورعون والمتحمسون من جماعة إخوان الصفا. (توماس أرلوند، د.س، ص 128)

و هذه شهادات المؤرخين الأوربيين على تسامح المسلمين مع المسيحيين في الأندلس تتسم بالموضوعية على خلاف المتعصبين من أمثال المستشرق رينهرت دوزي الذي يطعن في كل ماله علاقة بالإسلام و المسلمين.

كما حاول المستشرق رينهارت دوزى أن يشوِّه دولة المرابطين كما شوه تاريخ الدولة الأموية ويصف الدولة المرابطية بالبربرية والتخلف، ويصف السلطان على بن يوسف بالرجل التافه، ويمدح ملوك الطوائف فى الأَنْدَلُس الذين تحالفوا مع النصارى للقضاء على الإسلام والمسلمين، وشنَّ حملة مسعورة على جهاد المرابطين الذين حقَّقوا وحدة صفوف المسلمين، وهزموا أعداءهم النصارى، وخلصوا المسلمين من هؤلاء الملوك الضعفاء، لقد شتم دوزى المستشرق الأمير يوسف، ووصفه هو وابنه بأنَّهم تافهون (محمد الصلابي، د.س، ص 245) ،لا لشيء إلا أنهم أنقذوا الأندلس من يد النصارى

بعض المستشرقين، وعلى رأسهم رينهارت دوزي**R. Dozy** ، اتهام العرب بأنهم لم يكونوا عادلين في قسمتهم للأرض، فأعطوا البربر المناطق الجبلية القاحلة، وخصوا أنفسهم بالسهول الخصبة. (الدوزي، نفس المرجع السابق، ص 157) ولا يمكن العثور في المصادر على ما يؤيد هذا الاتهام الذي لا أساس له من الصحة. فقد كان البربر هم الأغلبية الساحقة في جيش طارق بن زياد، وكذلك كانوا بأعداد لا بأس بها في جيش موسى بن نصير، فضلاً عن أن الكثير منهم عبروا إلى الأندلس بعد سماعهم بنبأ انتصار المسلمين على القوط. وهكذا فقد فاق البربر العرب بأعدادهم، ومن غير المحتمل أن يكون للعرب تأثير كبير على استقرار البربر في الأندلس. والواقع فإن استقرار العرب والبربر في الأماكن التي نزلوا فيها لأول مرة، كان يخضع لعامل الصدفة لا غير، إذ لم تكن لديهم فكرة واضحة في البداية عمّا ستكون عليه هذه الأماكن، وإن كان البربر أكثر اطلاعاً ومعرفة بالمنطقة بحكم معيشتهم في الشمال الأفريقي المجاور. ولهذا فقد كانوا في موقف أفضل لاختيار أحسن المناطق للاستقرار فيها. ويمكن تفسير وربط اختيارهم للمناطق الجبلية في الأندلس بالحقيقة التي توضح بأن عدداً كبيراً منهم عاشوا بالأصل في مناطق جبلية في شمال أفريقيا، ولهذا فليس من الغريب أن نجدهم يستقرون في الأماكن التي تشابه مناطق استقرارهم الأصلية. (عبد الواحد، 1981)

3. خاتمة :

لقد قام المؤرخ المستشرق ريهرت دوزي بتحليل و مناقشة الأحداث و الأوضاع السياسية و الاجتماعية و الدينية ، خاصة علاقة المسلمين بأهل الذمة من اليهود و النصارى في العهد الأموي بالأندلس وفي هذا التحليل غلب عليه الذاتية و البعد عن الموضوعية و خاصة في تشويه صورة الأمراء الأمويين بالأندلس مثل عبد الرحمان الداخل و عبد الرحمان الناصر و هذه مغالطات تاريخية يجب على الباحث الحيطة منها ، و المؤرخ دوزي مثل بقية المستشرقين يحاولون نشر السموم و المغالطات التاريخية التي تشوه حقبة هامة من تاريخ الإسلام في الأندلس.

و حتى أغلب المؤرخين المعاصرين خاصة المؤرخ حسين مؤنس اغتروا بكتابات المؤرخ دوزي و اعتبروه علامة في التاريخ ، و أهملوا الآراء التي طرحها في كتابه الذي درسناه مثل فكرة التسامح الديني بالأندلس الذي يعترف بوجوده دوزي و لكن تفسيره لأسباب تسامح الأمويين مع النصارى بالأندلس يرجعها إلى رغبة الأمويين في الحصول على الأموال عن طريق فرض الجزية و ليس تطبيق للشريعة الإسلامية أو تطبيق التسامح النابع من أخلاق و قيم الإسلام .

هذه الأفكار والأراء يجب الحذر منها خاصة الباحثين الذين تعتمد أغلب دراساتهم في تاريخ الأندلس على مؤلف دوزي الشهير" تاريخ المسلمين في إسبانيا ."

4. قائمة المراجع:

-ابن حيان،(1986)، المقتبس في تاريخ الأندلس، مصر، المكتبة الأندلسية.
-الحميدي،(1936)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، ج1، المكتبة الأندلسية.
-رينهرت دوزي، تاريخ المسلمين في إسبانيا، الجزء الأول و الثاني
-محمد عبد الله عنان، دول الإسلام في الأندلس، الجزء الأول، القاهرة، مصر، مكتبة الخانجي.
-حسين مؤنس، (1987)، معالم تاريخ المغرب و الأندلس ، مكتبة مصر للأعمال الفكرية.
-عبد الله إبراهيم(1990)، سماحة المسلمين في معاملة غير المسلمين، ج1، مصر ، المكتبة الفكرية.
- عبد الواحد ذنون طه، (1981)، استقرار القبائل البربرية في الأندلس، المعهد الإسباني العربي للثقافة ، العدد 4، مدريد.